مبتور الساقين

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأديب السيد كمال الحريري

جرت لي هذه الحادثة سنة ١٨٨٢ وكنت مسافراً في القطار ومزمعاً الانزواء بنفسي في إحدى غرفه ، حين انفتح بابها وسمعت صوتاً يقول لآخر :

— خذ حذرك من الزال ياسيدى ، فقد بلغنا ملتقى الخطوط « القص » ثم إن مرتقى القطار مرتفع .

فأجابه صوت آخر :

— لاتخف ياوران فساعتمد على مقبض عكازي

ثم ظهر لي رأس مستور بقبعة مستديرة وبدان تعلق بهما سيران من جلد ، أخذتا تعتمدان وتستندان إلى جانبي باب القطار . ثم رفعتا بهوادة وبطء جسماً بديناً بعض الشيء . سمعت لوقع أقدامه الخشبية نقراً على مرتقى القطار . وحين هم الرجل بالدخول إلى غرفتي أبصرت نهاية بنطلونه التراخي فبرزت لي من خلاله رجل خشبية سوداء لم تلبث أن لحقت بها أختها ، فعلمت أن رفيقي مبتور الساقين.

ثم برز لي من ورائه رجل آخر راح يقول له :

— هل أنت مرتاح في جلستك ياسيدي ؟!

— نعم ياولدي

— وإذن فهاك سريرك وهذا عكازك . وهنا أبصرت خادماً تبدو في سحنته معارف جندي قديم يصعد إلى صاحبنا حاملاً له بين ذراعيه كدسة من أشياء ملفوفة بأوراق بعضها أسود وبعضها أصفر . حتى اذا وضعها في رف القطار الواحدة بجانب الأخرى ، قال لسيده :

كل شيء معد لك يا سيدى : فى هذه الصرر الخمسة أشياء :

السكر واللبس ، والدمية ، والطبل ، والبندقية ، وأخيراً القطيرة الدسمة

— حسن جداً ياولدى .

— أتمنى لك سفراً ميموناً ياسيدى

— شكراً « ياوران » وأنا أتمنى لك صحة موفورة . ثم غادر الخادم القطار بعد أن أغلق على سيده باب الغرفة .

كان رفيقي في السفر في الثالثة والثلاثين من عمره تقريباً ، على رغم أن شعره وخط أكثره الشيب ؛ وكان حسن البزة والشارة غليظ الشارب تبد وعليه الفراهة والقوة واكتناز اللحم . فبعد أن استقر ومسح جبينه وراح ينفث في الهواء دخان سيجاره رمقني بنظرة هادئة ثم قال :

— لعل دخان سيجاري يزعجك ياسيدى ؟

— فقلت له: كلا ، ولكن ما كدتُ أنطق حتى دهشت . ذلك أن هذين العينين وذلك الصوت وحتى هذه السحنة لم تكن غريبة عني . نعم كنتُ أعرفها ولكن أين . . ومتى ؟ وفي الحق لقد بدا لي أني لاقيت هذا الشاب وكلمته وضغطت على يديه ولكن ذلك كان بعيداً حتى لقد ضاع في ضباب كثيف يُخيل للفكر معه أنه يتلمس ذكريات الماضي ويتبعها كأنها الأطياف العابرة الهاربة . كان هو أيضاً يحدجني بنظره ويتفرس في وجهي متعرفاً .

كأنما داخله من التشكك بمعرفتي مثل ماداخلني . وتسابق نظرانا من هذه الملاقاة اللمحة فافترقا . على أنه لم تمض إلا ثوانٍ حتى عادا وتلاقيا ثانية بتأثير حب الكشف والاستطلاع . وابتدرته أنا قائلا :

— يالله ياسيدى . ألا ترى أنه يحسن بنا بدلا من أن يسارق كل منا صاحبه النظر أن نبحث معاً عن المكان والزمان اللذين تعارفنا فيهما أول مرة؟

فأجاب بلطف :

— إنك لمحق ياسيدى . وهنا سميت له نفسى قلت :

— إنى أدعى القاضى هنرى «بونكلير» فتردد برهة ثم قال بعين غائمة بضباب الذكرى وصوت من يحضر ذهنه كى يستذكر شيئاً عفى عليه الزمن :

— آه . . ذكرتك تماماً . فقد صادفتك فى «بوانسل» وكان ذلك منذ اثنى عشر عاماً قبل الحرب المشئومة . .

— نعم ياسيدى . . . أوه . . . وإذاً فأنت الليوتنان فاليه ؟

— نعم بعينه ، ثم أصبحت الكابتن «فاليه» قبيل اليوم الذى فقدت فيه ساقىّ الاثنتين باصابة فظيعة من قنبلة حربية .

وهنا حدق كل منا فى صاحبه من جديد بعد هذا التعارف . وتمثل فى خاطرى هذه الساعة منظر ذلك الشاب الجميل اللطيف الذى كان ملء العين والفؤاد بلباقته وخفته وجماله . ولكن وراء هذه الصورة الغامضة الملفوفة بضباب النسيان ، كانت تطفو على ذاكرتى قصة لهذا الشاب ، كنت أعرفها وأنسيتها الآن ، ولكنى لم أنس أنها قصة جذابة الحوادث مغرية رغم قصرها لأن الحب لعب على مسرحها . ثم أخذت ظلال النسيان تنحسر عن ذاكرتى شيئاً فشيئاً وإذا بها تتضوء وتستنير بها المسالك فيطالعنى من خلال سطورها المحوة وجه فتاة مليحة ، وإذا باسمها يرن فى سمعى ويجرى على لسانى : الآنسة « ماندال » . . لقد ذكرت كل شيء الآن . . وفى الحق لقد كانت قصة غرام تلك التى نسيتها أولا . كانت تلك الفتاة تحب هذا الرجل حين التقت به ، وكان الناس يتحدثون عن زواجهما المنتظر القريب الذى كان يفجر ينابيع الفرح والسعادة فى قلب صاحبنا الضابط .

وهنا صوبت بصرى إلى الصرر الموضوعة على الرف فوق رأس الضابط الكسيح . فاذا بها تهتز وتضطرب من حركة القطار ، وإذا بى كأنى أسمع الآن صوت الخادم يقول لسيده :

كل شيء مُعد لك ياسيدى . فى هذه الصرر الخمسة أشياء : السكر ، والملبس ، والبندقية ، والطبل وأخيراً الفطيرة الدسمة . وتألفت فى لحظة بخاطرى رواية لهذا الكسيح الذى أراه أمامى : رواية تشبه الشبه كله جميع ما كنت قرأته فى القصص أو رأيته فى المسارح ؛ وذلك إما أن يتزوج الخطيب ذو العاهة خطيبته السليمة أو لا . وإذن فان هذا الضابط المبتور الساقين قد وجد خطيبته بعد الحرب فوهبت نفسها له رغم مصيبته بساقيه . تمثلتُ كل هذا جيداً وفى بساطة ، ثم عرض لى فجأة افتراض آخر أشبه بالحق وأقرب إلى الواقع المنتظر . أيكون الرجل قد تزوج من فتاته قبل الحرب وقبل الفاجعة الأليمة بساقيه ؟ أتكون الصبية المسكينة احتسبت الله فى مصيبتها فيه وخضعت لمشيئة القدر القاسى ، فهى تستقبل مكرهة هذا الكسيح الذى غادرها

ملء العين ملاحة وسلامة قبل الحرب ، وآب إليها بساقين خشبيتين وجسم ناقص لا يتحرك إلا على عكازين ؟ أتراه سعيداً أم متألماً ؟ ! وقامت بنفسي رغبة لا تقاوم في الاستعلام عن قصة زواجه والاستفسار على الأقل عن النقط المهمة التي أستطيع أن أبصر على ضوئها ما يود هو إخفاءه عني أو ما لا يمكنه الافضاء به. ورحت أكلمه بأحاديث شتى، بينما عيناي مثبتتان على الصرر الملفوفة التي وضعها خادمه على رف القطار ثم استنتجت من محتوياتها أن له امرأة وطفلين: أما السكر والملبس فلامرأته ، وأما الدمية فلطفلته، وأما الطبل والبندقية فلطفله، وأما الفطيرة الدسمة فله هو ؛ وفجأة قلت له :

— لعلك أب لعائلة يا سيدي ؟؟

— كلا .

فشعرت بشيء من الخجل والربكة لهذا السؤال كأني ارتكبت ما لا يتفق وحسن العشرة . لهذا عقبتُ :

— معذرة يا سيدي لقد ظننت ذلك مما سبق إلي سمعي من قول خادمك وإشارته إلى هذه اللُّعب . وأنت تعلم أن المرء قد لا يملك أذنه حتى ولو لم يرد ذلك . فافترثغره عن بسمة راضية ثم قال :

— وما قولك أني لست متزوجاً ؟

وهنا بدت عليّ دلائل الاستذكار والتأمل ، ثم قلت فجأة :

— أوه ! إن ما تقوله الحق ، فحين تعرفت بك كنت عاقداً خطبتك على الآنسة ماندال فيما أظن ؟

— نعم يا سيدي إن ذاكرتك جيدة جداً .

فاجترأت وتابعت :

وأذكر أيضاً أني سمعت أن الآنسة ماندال خطيبتك تزوجت موسيو ... موسيو ... فلفظ الضابط في سكون هذا الاسم :

— موسيو فلوريل ، أليس كذلك ؟

— نعم هو بعينه . وأذكر أيضاً أني سمعت في ذلك الحين قصة فاجعتك ، ونظرت إليه من جانب عيني فاذا بالدم يتدفق في وجهه أحمر قانياً ، ثم إذا به يجيبني في حمية ونشاط مثل من يدافع عن قضية ضاعت له سابقاً وفرّط في حقه فيها وهو يريد الآن تبرير موقفه فقال :

— لقد كان من أعظم الخطأ بل والألم أن يذكروا أمامي اسم خطيبتي « ماندال » بعد إذ أُبتُ من الحرب بدون ساقين ، وياللأسف ، لم يكن بوسعي أن أقبل دون ألم وتقريع ضمير أن تصبح « ماندال » امرأتي . أترى ذلك يكون ممكناً ؟ ؟ حين يتزوج المرء يا صديقي لا يفعل ذلك كي يتباهى على الناس بامرأة جميلة فتانة ! إنما يفعل كي يعيش بجانبها ويتصل بها طوال الأيام والساعات والدقائق والثواني . فاذا كان الزوجُ مثلي كتلة شوهاء مبتورة فانه يزواجه من فتاة ريانة الشباب يكون قد حكم عليها بالألم المضّ وقسرها على حياته الناقصة المحطّمة حتى الموت . أنا أفهم وأقدّر بل وأعجب بجميع التضحيات ، ولكن حين يكون لها حدود تنتهي إليها . لهذا فأنا أستنكر من نفسي أن تحرم فتاةٌ جميلة نفسَها لأجلي من كل ما تهفو إليه جوارحها ونفسها من سعادة وملاذ وأحلام للصبا وللجسد أيضا ، كل ذلك كي يقال عنها إنها عفيفة ظريفة كريمة . ثم كيف أطلبُ منها هذا وأنا نفسي حين أسمع على أرض الدار وقع عكازي وأنا أمشي وأحجلُ ، أنا نفسي

حين أسمع هذا الصوت الذى يُشبه وقع أقدام الغزال يجيش فى نفسى الحنق فأود خنق خادى . وهل تظن أنه يمكن أن يقبل الزوج من امرأة أن تسامح فى شىء هو نفسه لا يغتفره لنفسه ، ثم أتعتقد وتتصور أن ساقىّ الخشبيتين هاتين جميلتان فى النظر فاتنتان للعين ؟ وسكت وسكتُّ فما عساى مجيبه ؟! إن كلامه الصدق فهل يوسى أن ألومه أو أخطئه . ثم سألته فجأة :

— هل لبدام فلوريل خطيبتك المتزوجة أولاد ؟!

— نعم ، طفلة وصبيّان ، ولهؤلاء الأطفال ما أحمل من لُعب فى هذه الصرر كهدية . إنها وزوجها طيبان . . وكان القطار فى هذا الوقت يصعد ملتقى خطوط « سانت جرمان » ثم يمضى تحت الأنفاق المتعاقبة فى المحطة . ثم يقف . وعزمت على تقديم ذراعى مُتكأً للضابط الكسيح كى يستعين عليها فى النزول من القطار لولا أن يدين امتدتا من باب القطار المغلق لمساعدته

— نهارك سعيد يافاليه . فأجاب صاحبى الضابط

— سعد نهارك « يا فلوريل » . وكان خلف الرجل امرأته الجميلة تبتسم له أيضا وهى ترسل التحيات الحارة من كفيها المستورتين بقفازين . وبجانبها طفلة صغيرة كانت تطفر من الفرح والابتهاج بلقاء صاحبى الضابط وبجانبها الآخر صبيّان صغيران كانا يتناولان بشغف ونهم الطبل والبندقية وقد برزا من طرفى الصرر التى تسلمها أبوهما فلوريل

وحين هبط الضابط إلى إفريز المحطة أسرع إليه الأطفال فعانقوه فى عجبة وألفة وشوق . ثم اتخذت العائلة طريقها إلى المنزل ، وفى أثناء الطريق أخذت الطفلة تسند بكفها اللينة الغضة مسند عكاز الضابط الكسيح وقد فاض وجهها بماء الابتهاج والطيبة والمحبة البريئة

كمال الحريرى

وحى بغداد

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

بقلم الدكتور زكى مبارك

يطلب من المكاتب الشهيرة

وثمن النسخة عشرة قروش

اقرأ :

توفيق الحكيم

فى كتبه الثلاثة الجديدة :

عهد الشيطان

ثمن النسخة ٧ قروش

تحت شمس الفكر

ثمن النسخة ٨ قروش

تاريخ حياة معدة

ثمن النسخة ١٠ قرشا

تطلب من جميع المكاتب الشهيرة